

## الجانِب الإنساني في أدبيات جبران خليل جبران

د. جدي فاطمة الزهراء

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي لباس-سيدي بلعباس-

### الملخص:

إن أبرز ما يميز الإنسان هو وجود الروحية فيه ، وحقائق وجودها لا تقل أهمية عن حقيقة وجوده ، وأهم شيء في ذلك النزعة الإنسانية التي ارتبطت على نحو ما بما يدعو إليه الدين، من تسامح وإعلاء الفكر الإنساني، وكانت هذه القضية وراء انشغال جبران الدائم في البحث عما يخلده من صدق وعفة، ووفاء وأخلاق.

الكلمات المفتاحية : الإنساني، القومي ، التسامي ، تغليب الروحي والنفسي على البيولوجي

الحديث عن الإنسانية الجبرانية حديث ذو شجون، يتغنى بمفاتيح الإنسان ويحس بأوجاعه في كل نبضة من نبضات قلبه الحساس، ومن محبة لبنان ينطلق إلى محبة العالم بكل ما فيه من إخلاص الإنسان، وحنين الشاعر، وحيوية الفنان، وهي صفات أديب ندعوه جبران، قد كان أنسانا يحب كل إنسان على وجه الأرض، متجاوزا بحبه حدود الدين والجنس والاقليم ، وإذا تساءلنا ماهي الإنسانية في الأدب وكيف تبدو معالمها عند جبران ؟ وجدناها حسب الناقد أنطوان غطاس كرم تتقلب على " الوجوه الخمسة التالية:

1- هي بمعناها العام كل نظام فكري من شأنه العناية الجلى بالانسان.

2- وأطلقت التسمية على الحركة الفكرية التي هدفت إلى فك تقاليد العصر الوسيط في اللاهوت والفلسفة.

3- كما أنها أطلقت على فلسفة (أوغست كونت) التي جعلت الانسان مرتكز الألوهة.

4- وأن رائد أربابها في ألمانيا إزالة الفوارق الأسرية والأخلاقية ودحض العرق الذي أقرها ليلغ الانسان آخر حدود كماله وتتحقق ذاته على الوجه الأتم.

5- وأن هذه النزعة الانسانية الشاملة كانت وليدة الرجوع غلى الثقيب في الثقافة الكلاسيكية جملة فخرجت عن حكمة واسعة وأخلاقية صافية.<sup>1</sup>

وإذا قلبت هذه الوجوه الخمسة، وجدناها تلاقي واقع جبران وفنه، بعنانيته بشوؤن الإنسان، فقد كان في أول عهده في الكتابة يخاطب إنسان لبنان، من خلال أبطاله المحليين من بيئات مختلفة من لبنان، ذلك أن الإنسانية لديه عبارة عن مبادئ سامية، ونشر للمثل العليا بين الناس ومحاربة القيود والنظم التي تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان، والعمل على خلق مجتمع انساني مثالي يسوده العدل والرحمة والمحبة.

تبقى المحبة من العطاء وهو معطى يدرك جبران من خلاله سبل الوصول إلى الحقيقة الإنسانية، فالحب والمحبة حدود متداخلة لديه: "حب علوي لا يعرف الجسد لأنه غني، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح ميل قوي يغمر النفس بالقناعة مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكفاء".<sup>2</sup>

بث جبران في كتاباته حبا صوفيا له أبعاد ميتافيزيقية، فقد جرده من الارتباطات الدنيا، إذ جند كل مواهبه العالية لقيادة البشرية إلى الجمال والخير والحق، وإلى الحب والسعادة والحرية فالمجتمع الإنساني، حقل غرس فيه عصارة روحه وشعوره وفيض عقله وخياله، وإن كان شاعرا متمردا في (الأجنحة المتكسرة) و(الأرواح المتمردة) و(عرائس المروج)، فقد كان حالما في (دمعة وابسامة) وحكيما في (المواكب) والهادي المبشر في (النبى)، لكنه يبقى جبران المحب للإنسانية في كل كتبه.

هاجم جبران في مرحلة تمرده الكهنة والإقطاعيين الميطرين على الأجساد، ورأيناه يرسم لنا الحماقات التي تنغص سعادة الإنسانية، ويسخر كل شاعريته وخياله، في محاولة الوصول إلى كل قلب وضمير وكل إدراك، ليوقظ في الناس شعور الحي بإنسانيتهم التي يجب أن لا تضعف، ولعل من جملة العلاقات الإنسانية التي عاجلها جبران، التسامح يرى أنه "لكل عظيم قلبان، قلب يقطر وقلب يصبر".<sup>3</sup>

القلب مصدر قانون الطبيعة البشرية ، والقلب هو الباب الذي يطل على الفردوس الأرضي، وهو حلقة الوسط بين الإنسان وأخيه الإنسان، القلب ينبوع يمتلئ بالمحبة، كان جبران شاعرا يرسم بدم القلب ويكتب بعصير الروح، فله رؤية في هذا نوع من الكتابة حيث يقول: "ليس من يكتب بالخبر كمن يكتب بدم القلب".<sup>4</sup>

وقد عبر بالخطوط والألوان عن نوازع النفس البشرية، وصور آلامها وآمالها وبكى لأوجاعها وغنى أفراحها، ونجده قد ارتبط بالحياة وأخذ يردد: "لو شئت تسميتي فقولوا إنني من حزب الحياة"<sup>5</sup> لأن أسمى مستوياتها هو الحب، فهو شريعته عندما يلتقون الناس وأمامه يتساوون وعلى عتباته يزول ما بينهم من فروق ويذوب ما بينهم من خصومات، وعن الحب تتفرع جميع مظاهر الحياة.

يرى جبران أن العمل أساسه الحب، وبالععمل "النافع يفتح العامل قلبه ومن أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها".<sup>6</sup>

العمل الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة، كونه من مظاهر العبادة وإن ربط جبران العبادة بالمحبة، ذلك أن العمل هو الذي يقربنا من حقيقة ذواتنا وحقيقة السعادة، إذ خلق جبران مفهوم العمل من أجل كسب الرزق أو المنفعة، ليدخله إلى صلب المحبة أين يخلق النسان ذاته المادية ، ويرتدي وشاحا نورانيا أثريا وهو يعمل ليحب الآخرين، ويخدم الحياة متوخيا الحياة في عمله. ذلك أن " الحياة

ظلمة حالكة إن لم ترافقها الحركة والحركة تكون عمياء، ولا بركة فيها إن لم يرافقها العمل، والعمل يكون باطلا بلا ثمر إن لم يقترن بالحبة.<sup>7</sup>

انطلاقا من ناموس المحبة الذي هو فوق الشرائع، يخاطب جبران الإنسان إذ يرى جميع الناس إخوة ولا يجوز أن يتختم أخ، بينما يجوع الأخ الآخر وفي ذا هتف قائلا: "أنت أخي وكلانا ابن روح قدوس...خذ مني ما شئت فلست بسالب غير مال لك الحق، بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي."<sup>8</sup>

يذهب جبران إلى معنى العطاء من خلال نظرته للأبعاد الصوفية اللامتناهية للعطاء، فلا يكفي أن يعطي الإنسان من ثروته بل عليه أن يعطيه من ذاته أيضا، ويجنبه مرارة السؤال، فكل ذي حاجة يستحق العطاء طالما أنه استحق نعمة الحياة، لأن الحياة هي التي تعطي وليس الإنسان المعطي: "...جميل أن تعطي من يسألك وأنت تعرف حاجته...الحق أقول لك أن الرجل الذي استحق أن يتقبل عطية الحياة، ويتمتع بأيامه ولياليه هو مستحق لكل شيء منك...لأن الحياة هي التي تعطي الحياة، في حين أنك وأنت الفخور بأنه قد صدر العطاء منك، لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على ذلك."<sup>9</sup>

في فم جبران نشيد عاطفي راعش، يتغنى بالإنسان والحب والحياة، وكل أحاديثه عن هذه المظاهر، حديث ينطوي على انسانية مرهقة أساسها إيمانه بنفع الإنسان وصلاحه وصفائه ونقاته من الشرور، فإن قال: "إني أكرهكم يا بني أُمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة، أنا أحتقركم لأنكم تحقرون نفوسكم."<sup>10</sup> فهذه الكراهية إن كانت لأمته، إلا أنها في الحقيقة حبا مقدسا مخلصا لأنه أقر على ذلك بنفسه: "لا بأس فإني سأحبكم أكثر...نعم أكثر فأكثر، ولكنني سوف أسدل على محبتي ستارا من البغض وأستر عواطفني بشديد كراهيتي."<sup>11</sup>

لقد عبر جبران عن الانسانية المقدسة التي هي روح الألوهية على الأرض، وذلك من خلال كتابه (دمعة وإبسامة) مرحلة الحلم، فقد كان غريبا عن بلده

وعن الأمة الواحدة، كون الأرض كلها وطنه، والعائلة البشرية عشيرته كما وجد أن الانسان ضعيفا ومن الصغر أن ينقسم عن ذاته، والأرض ضيقة.

ومن الجهل أن يتجزأ إلى ممالك وإمارات، فوحدة الجنس البشري فوق الزمن والتاريخ والحدود، وتتمثل في الامتدادات الثقافية، والخلقية، والسياسية، ولا يتعارض الإخلاص لها مع الإخلاص القومي، ويقول في هذا: "أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني، وأحب الأرض بكلي لأنها مراتع الإنسانية وروح الألوهية."<sup>12</sup> والأديان روابط تشد الانسان إلى أخيه البعيد فهي في اختلافها دين واحد، ومع ايمان جبران بوحدة الأديان التي تجمع العالم العربي، فإنه يحتفظ في نصف صدره يسوع، ويمجد في النصف الآخر، ويهمس إلى كل مواطن يعيش في العالم العربي: "أنت أخي وأنا أحبك ساجدا في جامعك، راکعا في هيكلك ومصليا في كنيسك، فأنت وأنا دين واحد، وهو الروح وزعماء فروع هذا الدين، أصابع ملتصقة في يد الألوهية المشيرة إلى كمال النفس."<sup>13</sup>

وقد غدى حكيما يكشف عن حقيقة قلبه المتفجر بالحب الشامل، والتمنا ذلك في كتابه (المواكب) فقد سعى إلى اصلاح الناس ومؤسساتهم لما فيه خير الناس، الذي أبكته تعاستهم ثم تفجرت بعد ذلك غضبه عليهم، وقد جاء ذلك على لسان طنسي زكا: "إن أسلوب التفرع يجدي في ايقاظهم أكثر مما يجدي أسلوب التفرع والمشاركة بالمأساة."<sup>14</sup>

شرح جبران حقيقة مشاعره عندما صب غضبه عليه، لكنه في الأعماق قلب ينزف دما، وتجد نفسه المشبعة بالرقعة ومحبة الخير، معلتا بنغمة شجية: "ما أنبل القلب الحزين الذي لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة."<sup>15</sup> كل هذه الآلام الكبيرة التي عرفها حولها إلى طاقة خصبة متجة، تدفعه إلى عمل وأمل أكبر ولاسيما أنه عرف الخطيئة بنفسه وعاش فيها، وعن طريق تجاربه أدرك نقائص النفس الإنسانية، ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يخرج

لنا كتابه ( النبي ) ويقدم فيه صورة نفسه والصورة الصحيحة للإنسان الكامل الذي أسفرت تجاربه عن ضرورة وجوده لإصلاح نفوس البشر وكان هذا الكتاب ( النبي ) إنجيلا تناول فيه شؤون الإنسانية الأساسية، كالحب والخير، والشر والجمال والموت.

ولئن كان مبشرا بأفكاره المنطلقة في عالم الحق المندفعة في دنيا الإنسانية الرحبة، ذلك أن نزعته ودعوته إلى الحياة الفطرية لم تنجح في مواجهة مشاكل العصر الصناعي الحديث، ولم يزود الإنسان بزد جديد، كان نبيا ظهر في غير عصره، وفي غير وطنه ليتيح للمحزونين الهروب إلى عالم خيالي، فيه الخلود والطمأنينة ذلك أن قلبه كان يضطرم حبا شفافا نحو الناس جميعا، والعالم كله.

فقد جعل النفس الحساسة تشعر برغبة في البكاء ولاسيما أن روحه تضم كنوز الحب الصافي، فالحبة تكلل هامة الإنسان المحب وترفعها إلى أسمى مستويات الحب، ونجد هذا واضحا في هذا المقطع من الكلام: " سأحيا عبر الموت وسأغني في أذانكم، حتى بعدما ترجعني موجة البحر الأوسع إلى أعماق البحر المديد، سأجلس في مركبكم ولو بدون جسد وسأذهب معكم إلى حقولكم روحا غير منظورة، وسأتي إليكم وأجلس قرب مواقفكم ضيفا لا يرى.<sup>16</sup>"

ولعل مايدل على شمول حس جبران وإنسانيته العميقة، ذلك الشعور بالألم تجاه نفسه، وهذا الشعور الروحي فيه انطلاق لأبعاد الكينونة الإنسانية، فالسعي الدائم على تخفيف الشقاء الإنساني، أو بالأحرى المحبة الصحيحة لكل ما في الوجود بغير تفضيل أو تفریق، جعلنا نحس مع جبران على أنه فرخ نسر يريد التحليق إلى أجواء النور، فروحه المتأججة الشاعرية تهمس إلى الذات الكامنة في البشر جميعا.

وكذلك إيمانه بأنه روح نبي يهمس بالحكمة، ويث السلوى ويحرك الأمل، جعله يخطط طريق الحياة المثلى متأثرا بالأفلاطونية الحديثة، والفلسفة الاشراقية، حتى أنه ذهب في تأملاته إلى اعتبار الحياة طريقا إلى الموت، والموت طريقا إلى

الحياة بالتناسخ، والله روح موزعة في أجزاء الكون، والله يستريح في العقل والوجود عنده وحدة فيقول: "كل ما في الوجود كائن في باطنك، وكل ما في باطنك موجود في الوجود، وليس هناك حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها... ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار... وفي حركة واحدة من حركات الفكر كل ما في العالم من الحركات والأنظمة."<sup>17</sup>

هكذا كانت تعاليم جبران الناطقة بإسم الألم والحياة، تتمحور حول ذات باطنة نزاعة إلى مواجهة أحاجي الوجود إلى إصلاح عالم الإنسان، ناشدا إلى أرض جديدة يحيا عليها إنسان سعيد، يتغنى بالحب النابع في جميع المراتب والمحسوسات التي ترتبط بالطبيعة، لأنها الروح الكلية الأزلية والأبدية المملوءة بالجمال والحبة.

يعتبر جبران الله مصدرا لقانون الطبيعة الكونية، ولئن صور نفسه رسولا ذلك أنه عانى قضية الغربة والوحشة، وأدرك أنه مسخر لبناء معالم الانسانية بشعور إنساني تترقق في جنباته عاطفة حققة، ونجده يقول عن ذلك: "منذ سلمني الناس مقالدهم وأنا أدأب النهار والليل في سبيل إسعادهم، وأجتري العجبية بعد العجبية لأنقذهم من بؤسهم وشقائهم."<sup>18</sup> ويزيد في إنسانيته تجاه الناس قائلا: "ووجدتهم يسلكون إلى السعادة شتى المسالك، ويطرقون شتى الأبواب فهديتهم، إلى مسلك واحد وهو أنا، أنا هو المدخل والمخرج وأنا الدليل والحجة، تلك هي العجبية الثالثة."<sup>19</sup>

ما يمكن قوله عن انسانية جبران، أنها اقترنت بنسق النبوة الرائية، فكان صانع أصداء إيماءات الخيلية، خاطب بها الأرواح والقلوب، وحمل بين أنامله جنون ضميره أدبا أراد أن يتجنح ليطير في سماء الخيال، مازجا بين الوجدانية الرومانتيكية، والرمزية التي يلتبس معناها أحيانا، ولكنها بالرغم ذلك تترك في روح القارئ شعورا قريبا بجمال أسلوبها وروعة صورها.

## الهوامش:

1. أنطون غطلس كرم، جبران الخالد تأثيراته وتأثراته، محاضرات الندوة اللبنانية، 1956، ص 242.
2. المجموعة العربية لمؤلفات جبران، منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت لبنان، ص 129.
3. النبي، لجبران خليل جبران، نقله إلى العربية وقدم له ثروت عكاشة، ط1، 1984، ص 24.
4. المجموعة العربية، العواصف، ص 425.
5. نفس المصدر، ص 24.
6. طنسي زكا، بين نعيمة وجبران، مكتبة المعارف، ط1، 1971-ط2، 1979، ص 26.
7. نفس المصدر، ص 26.
8. طنسي زكا، ذكرياتي مع جبران، ص 43، من مؤلفه بين نعيمة وجبران، ص 49.
9. مجموعة مؤلفات جبران خليل جبران، المترجمة إلى الإنجليزية، بيروت، 1964، ص 92-93-94.
10. المجموعة العربية، العواصف، ص 382.
11. مجموعة مؤلفات جبران خليل جبران، المترجمة إلى الإنجليزية، ص 76.
12. المجموعة العربية، دمة وابتسامة، ص 166.
13. نفس المصدر، ص 168.
14. طنسي زكا، بين نعيمة وجبران، ص 25.
15. المجموعة العربية، رمل وزيد، ص 161.
16. مجموعة جبران خليل جبران، المترجمة إلى الإنجليزية، ص 481.
17. المجموعة العربية، إرم ذات العماد، ص 575.
18. ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، حياته، موته، فنه، أدبه، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1964، ص 5، ص 129.
19. نفس المصدر، ص 129.